هذا هو طريق ١٤ تموز

سلام ابراهيم كبة

تفجرت تناقضات النظام الاقتصادي الاجتماعي في العراق عام ١٩٥٨ بثورة ١٤ تموز المجيدة، ودك اداته القمعية السياسية المتمثلة في النظام الملكي الاستبدادي.... وعبرت الثورة عن عجز النظام السياسي و الاجتماعي المباد في حل تناقضاته الاساسية والاستجابة لمصالح الجماهير في الحرية و الحياة الكريمة. وقد اكتملت ونضجت القيادة السياسية و العسكرية التي اخذت على عاتقها اسقاط النظام القديم وبناء النظام الجديد قبيل تاريخ الثورة عندما نجحت القوى السياسية الوطنية في تأليف جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧، بعد مخاض طويل و عسير، عندما تم الاتصال بين عناصر الجبهة ومنظمات الضباط الاحرار، في سبيل تفجير الثورة العظيمة! تصاعد دوي جرس الانذار الطبقي في المؤسسة العسكرية العراقية والمجتمع العراقي في خمسينيات القرن المنصرم ولم يعد بمقدور السلطات الاحتفاظ بالموازنة الطائفية والطبقية في آن واحد! ودخل النظام طور الهرم والشيخوخة وبدأ الحكم يفقد مواقع داخلية متزايدة وترسخت في العقلية السياسية العراقية مشروعية الاستعانة بالجيش. ولم تعد مؤسسات النظام وبرلمانه موضع حرص من احد.. هكذا دك الجيش العراقي الملكية واجتث النفوذ البريطاني واكد انه جيش الشعب عام ,١٩٥٨

في صبيحة الرابع عشر من تموز تم تفجير الثورة الوطنية الديمقراطية التي ترقبها الشعب بفارغ الصبر. فجرها الجيش العراقي الباسل بضربة استاذ حاسمة وأيدها بحماسة الشعب العراقي والشعوب العربية ومجموع الانسانية المتحررة. الا ان الجوانب السلبية للحكم الجديد ما لبثت ان بدأت تطغى على جميع الجوانب الايجابية لأن بذور الفردية في قيادة الزعيم الوطني الكبير عبد الكريم قاسم كانت كامنة في صلب الحكم الثوري الجديد منذ ولادته! فقد حصرت اختصاصات الحسم في اهم قضايا الامن بالزعيم، وبرز الانفصال الواضح بين المدنيين والعسكريين في الحكومة لأن المسؤولين المدنيين كانوا يجهلون اي شيء عن القادة العسكر للثورة وطبيعة منهجهم السياسي وعقيدتهم الثورية مع عدم وجود أية هيئات قيادية شعبية او حزبية بديلة ، وانعدمت الاجهزة الشعبية المنظمة لرقابة السلطة التنفيذية، وأفل مجلس السيادة لعدم ممارسته اية سلطة حقيقية، ولم تكن الحكومة الوليدة –حكومة وحدة وطنية اي حكومة مجموعة الاحزاب السياسية الرئيسية في البلد عبر ميثاق مبادئ وعهد وطني وبرنامج سياسي يعالج سياسة الدولة على اسس منهجية وعقائدية منظمة .

بالرغم من العيوب الكبرى في السلطة السياسية الا ان الزخم الثوري والضغط الشعبي افضيا خلال الاشهر الاولى للثورة بمجلس الوزراء الى ممارسة شيء من المناقشات الحرة داخله... والى هذه الفترة ترجع اهم الانجازات التي قامت بها ثورة ١٤ تموز في بداية عهدها : في الحقل الخارجي – اعادة العلاقات مع الدول الاشتراكية، استرجاع قاعدة الحبانية، الانسحاب من الاتحاد الهاشمي والتمهيد للانسحاب من حلف بغداد. على الصعيد الداخلي –اعلان الدستور المؤقت والغاء اغلب المراسيم السعيدية واطلاق سراح المعتقلين والمسجونين السياسيين، الغاء قرارات نزع الجنسية عن العراقيين والسماح للمبعدين السياسيين بالعودة للوطن، اطلاق الحريات العامة والنشاطات الحزبية، الغاء سيطرة الامن على سياسة التوظيف، اصدار قانون المقاومة الشعبية والبدء بسياسة التطهير. اصدار البيان المشهور عن السياسة النفطية، الاصلاح الزراعي، عقد الاتفاقيات الاقتصادية الجديدة، اتباع سياسة التخطيط والاعمار بعد الغاء مجلس الاعمار، طرد الشركات الاجنبية المسيئة ومقاطعة فرنسا اقتصاديا، التحرر من الكتلة الاسترلينية.

منذ عام ١٩٦٠ ظهرت بوضوح على الحكم الجديد ملامح العزلة عن الشعب والفردية بأسوأ معانيها والعداء السافر للديمقراطية لينحدر آخر المطاف ويلتقي مع المخطط الاستعماري في تصفية القوى الوطنية والاجهاز على قوى صمود الشعب تمهيدا لعودة الاستعمار القديم والاستعمار المقنع الجديد، وهذا ما حصل بالفعل في ٨ شباط ,..١٩٦٣ مما حدا بالاحزاب السياسية التحول الى العمل السري مع محاولات الحكم تزييف الحياة الحزبية بابتذال وتزوير العمل المهني والاجتماعي والشعبي، وانتشار الفساد واللاابالية والانتهازية والوصولية في اجهزة الدولة، واطلاق الصحافة المأجورة لفرض سياسة الفزع والتهديد بالويل والثبور.

لم تكن ثورة ١٤ تموز المجيدة عام ١٩٥٨ مؤامرة نفذتها حفنة من الضباط في ساعة واحدة فقط مثلما وصفتها مجلة التايم الاميركية في اول عدد لها صدر بعد الثورة. ولم تكن ثورة ١٤ تموز" اسوأ لحظة في التاريخ ادت الى تدهور مركز الغرب الى ابعد حد.. وفتحت جيادها باب الاسطبل المغلق وهربت اثمانها. ولابد من ان يحال باي ثمن دون هروب اي جواد اخر بل لابد من استرداد الهارب الكبير" مثلما وصفتها مجلة الايكونوميست البريطانية لسان حال دوائر المال والاعمال البريطانية الكبرى. وفي غضون ساعات انزل سلاح الجو الملكي البريطاني والاسطول السادس الامريكي فيالقهما في الاردن ولبنان للوثوب الى بغداد من هناك واعادة الحصان الجامح –الهارب الكبير –الى الاسطبل الاستعماري من دون جدوى وعبثا ذلك ان شعبنا العراقي وليست حفنة من الضباط كان في غضون ساعة واحدة فقط قد نزل الى ساحة الثورة التي امتدت رقعتها لتشمل مساحة العراق من زاخو الى الفاو... (١٤ تموز ملحمة العراق الخالد / رسالة العراق / عدد٩١).

لم تجر ثورة تموز التغير الجدي في البناء الفوقي وبالأخص المؤسساتي –التمثيلي ولم تحقق التغيير المطلوب في المؤسسة العسكرية لتبقيها على حالها من حيث الطابع والمضمون ونظم العمل والعلاقات... ولم يطور قادة ثورة ١٤ تموز المؤسسات التي ورثوها من الحكم الملكي ولم يلزم العراق آنذاك سوى اصلاح البرلمان والدستور وارساء اسس المؤسساتية المدنية بما يخدم مصلحة الشعب والجماهير الواسعة ويحد من نفوذ تسلط القوى التي كانت تتلاعب بها فولدت الثورة العظيمة مجالا سياسيا ديمقراطيا متخلفا في الفهم السياسي لمستجدات الاحداث واسلوب ادارة المجتمع وغرقت الزعامات في بيروقراطيتها برغم نزاهتها. وتآكل المجتمع المدني وتحول الى ركام يتندر به الجميع.

أشر انقلاب ١٤ رمضان الاسود استحواذ الفاشية على السلطة بالتحالف العريض للقوى الطبقية المتضررة من ثورة ١٤ تموز –الاقطاع وكبار مالكي الاراضي والتجار الكومبرادور وبمباركة اشد القوى العشائرية والطائفية الشيعية والسنية رجعية..... وفتح الانقلاب الاسود الابواب مشرعة للعقلية الانقلابية المغامرة وسيادة المنهج التجريبي الموالي لمصالح المراكز الرأسمالية الدولية. وجاء انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ تتويجا لهذا التوجه الارعن لتتكرس الهيمنة الشمولية. هكذا اختارت الامبريالية الامريكية الشعب العراقي ليكون المثل الذي تقدمه لشعوب العالم على قدرتها على تركيع كل من يقف امام طموحاتها في الهيمنة على العالم لاسيما ان الشعب العراقي تجرأ ورفع قامته في حضور السادة وقاوم خططها مع ثورة ١٤ تموز... كما قاوم هذا الشعب المقدام افظع دكتاتورية عرفها التاريخ وما اقترفته من جرائم وحروب وما نجم عنها من حصار اقتصادي وقصف باليورانيوم المنضب لاعطاب البشر والبيئة، فضلا عن ان هيمنة الادارة الاميركية على ثروات العراق النفطية تمكنها من فرض هيمنتها على العالم عن طريق الهيمنة على مصادر الطاقة. فالعراق يمتلك ثاني احتياطي العالم من النفط.

درجت الإدارة الأمريكية منذ عقود خلت على ضم وحذف دول مختلفة من قائمتها للارهاب. وهي قائمة احتل العراق فيها الموقع المتميز منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ برغم توسع ارتباطاته الاقتصادية وارتفاع حجم تجارته بالسوق الأمريكية في الثمانينيات. وكانت علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة حسنة لم يطرأ عليها تغيير برغم انفالياته الكيمياوية مع الكرد ومقابره الجماعية بذريعة أنها شأن داخلي! ثم جاءت حرب الخليج لترسخ من مفهوم معادلة القيادة العراقية –الإدارة الأمريكية... وجاء الاحتلال.

تنبه استعادة دروس وعبر ثورة ١٤ تموز المجيدة.... وينبه تعطش الشعب العراقي الى الديمقراطية وصحوة احترام الرأي الآخر.. ينبه الجميع الى ضرورة اعادة النظر المستمر في المنطلقات والممارسات الخاطئة التي ابتلي بها عراق الخير والمحبة والسلام.. عراق الثورات المرتقبة!

بعد يوم واحد من "خميس لندن الأسود" اختصرت صحيفة "فاينانشيال تايمز" العلاقة بين قمة الثماني، التي اختتمت مؤخرا في غلين إيغلز باسكتلاندا، والتفجيرات التي عصفت بالعاصمة البريطانية، وذلك عبر رسم كاريكاتيري يظهر قادة الدول الصناعية وهم يمدّون يدهم برزمة من النقود إلى أطفال إفريقيين يمدّون بدورهم أيديهم لتلقيها. لكن انفجارا يقع بين الجانبين، يعيق وصول رزمة النقود إلى الأطفال الفقراء. كاتب في الصحيفة نفسها علّق بالقول إن الجماعات الإرهابية لن تتسنّى هزيمتها إلا من خلال فصلها عن العناصر التي تساندها وتزوّدها بالمزيد من الأعضاء الجدد، موضحا أن ما بحثه قادة الدول الثماني الكبار يتعلّق بتقديم المساعدات للدول الأكثر فقرا، على أساس أن القاعدة والتنظيمات الشبيهة بها هي انعكاس لمراحل طويلة من الظلم الحقيقي حول العالم، على حد قول الكاتب.

الحـــرب الإلكترونيـــة في العـــراق

جمال العميدي

الإرهاب فرض نفسه، إذن، على القمة، وغلب على معظم مناقشاتها، ولاسيما أن القمة قُوطعت بتفجيرات ٧ تموز، وألقت بظلالها على قمة مجموعة الثماني. وفي اليوم نفسه أوردت الـ "تايمز" مقالا بعنوان "رزمة واقعية: قمة الثماني لن ترضي المنتقدين ولكنها تشكل تقدما". المقال قال إن قمة الثماني انتهت بشكل هادئ، بعد أن غلبت إعلانات الاتحاد ضد الإرهاب على جدول الأعمال الأساسي، فضلا عن التغيير المناخي والفقر في أفريقيا.

وقبل انتهاء القمة قال وزير الخارجية البريطاني جاك سترو إن الذين يقفون وراء تفجيرات لندن لن يمكنهم تقويض فرص زعماء دول الثماني في التوصل إلى اتفاق على القرارات التي ستصدر عن قمتهم. وأكد سترو أن الهجمات أدّت إلى خلق جبهة موحدة في المؤتمر، مضيفا أنها أسهمت "في التشديد على أن الخلافات التي تحدث أحيانا، خلال المناقشات بين القادة المجتمعين والدول، هي خلافات هامشية ومحدودة تماما، مقارنة بما يوحّد ويجمع قادة دول العالم المجتمعين في غلين إيغلز". وقال الرئيس الفرنسي جاك شيراك مساء الخميس "لقد لاحظنا تغيّرا في الموقف الأمريكي"، موضّحا أن "الاتفاق الذي نسعى للتوصل إليه هو اتفاق مهم للغاية حتى لو لم يحقق كل ما كنا نتطلع إليه". وتوقّع مراقبون، تعليقا على هذه التصريحات، أن يسفر الاتفاق عن حل وسط، يجعل كلا من الولايات المتحدة وأوروبا يشعران بالنصر.

هذا التطوّر المهم في مشروع الحرب على الإرهاب، الذي يشير إلى تقارب وجهات النظر الأوربية مع أمريكا، سبقه تطور نوعي حدث في تشرين الأول ٢٠٠٤، تمثّل في إصدار مجلس الأمن قراره المرقم ,١٥٦٦ القرار المذكور الذي اعتمد بالإجماع، دعا الدول الأعضاء إلى تعزيز الإجراءات الدولية لمكافحة الإرهاب، ولا سيما تلك التي تشهد أعمالا إرهابية، سواء اكانت ممن يتعرض رعاياها للإرهاب في الداخل أو الخارج، أم ممن يقوم رعاياها بالتخطيط لأعمال إرهابية وتنفيذها. وقد شارك في تقديم مشروع القرار ١٥٦٦ كل من الصين وفرنسا وألمانيا ورومانيا، فضلا عن روسيا التي قدمت الفكرة وأصرت عليها، ولاسيما بعد الهجوم الذي تعرضت له بلدة "بيسان" الجنوبية. وفي اليوم نفسه أصدر القادة الأوربيون والآسيويون الذين حضروا القمة الأوربية . الآسيوية الخامسة في العاصمة الفيتنامية هانوي، بيانا في اختتام اجتماعاتهم، أكدوا فيه التزامهم بمكافحة الإرهاب، وضرورة أن يجري ذلك بالتوافق مع مبادئ الأمم المتحدة. أما الدور الامريكي فكان رئيسيا، لأن الولايات المتحدة نجحت، أخيرا، في تدويل الإرهاب وعولمته، بعد أن طالبت بذلك حتى قبل الحادي عشر من أيلول.

وإذا كنا نتكلم هنا عما درجت تسميته بـ "تجفيف منابع الإرهاب"، فإن قرار مجلس الأمن، وبيان قمة هانوي أشارا بوضوح إلى استعداد تلك الدول للمشاركة الفاعلة في الحرب على الإرهاب، إذا ما صدر قرار من مجلس الأمن يقرّ ذلك. لكن الحديث عن الحرب على الإرهاب ومكافحته، لم يعد يشمل اليوم شن عمليات عسكرية فحسب، إذ ركز قادة الثماني الكبار بالأمس القريب على مشكلة الفقر ودورها في دفع المجتمعات الفقيرة إلى ردود الأفعال العنيفة. وقبل ذلك سمعنا بالحرب الاقتصادية والحرب الإلكترونية التي تستعمل شتى إمكانات تكنولوجيا المعلومات المعاصرة.

الصدمة والرعب في ظل الحرب مركزية الشبكات

في فقرة لافتة من كتابه "الوضع ما بعد الحداثي"، ذهب جان فرانسوا ليوتار إلى أن الحرب العالمية الأولى كانت تدور حول السيطرة على أكبر مساحة من "الأراضي"، في حين أن الحرب العالمية الثانية انشغلت بالسيطرة على "الثروات". أما حروب اليوم فهي حروب "معلومات"، يلخصها سؤال جوهري واحد هو: من يعلم أكثر؟

وإذا عدنا إلى الحربين الأخيرتين اللتين شنتهما أمريكا في أفغانستان والعراق سنجد أن هاتين الحملتين كانتا مدهشتين عسكريا بكل المقاييس، إذ انتصرت الولايات المتحدة بشكل حاسم وسريع، وبأقل قدر من الخسائر البشرية، مما يدفعنا إلى القول إن الأداء العسكري الأميركي كان رائعا في تطبيق الخطة الموضوعة، وتنفيذ المهمات الملقاة على عاتقه. لكن الولايات المتحدة، من جهة أخرى، كانت الطرف الأقل نجاحا في الفوز بتحقيق السلام بعد الانتصار في الحرب، ولا سيما في العراق. وترجع بعض أسباب ذلك، كما يشير باحثون كثيرون، إلى أن أميركا شنت هاتين الحربين باستعمال أحدث نظريات الحرب الالكترونية والمعلوماتية حتى الآن، في حين أنها كانت تعالج القضايا الأخرى التي تكفل السلام بأكثر الطرق كلاسيكية وغطرسة وعشوائية.

ولعل الثورة التي تحدّث عنها العسكريون في عالم الحروب تعود إلى "الحرب مركزية الشبكات Network Central War" التي كُلِّف بالإشراف عليها والتخطيط لها الأدميرال المتقاعد آرثر سيبروسكي، الذي أنشأ "مكتب تحول القوة" في تشرين الأول ٢٠٠١، بعد استدعائه من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وتكليفه بمهمة تطوير وتفعيل التفوق المعلوماتي، عبر التوفيق بين كل جهود التحول في الخدمات، ولا سيما أن الحروب التي يمكن أن تخوضها أميركا تتسم بكونها عمليات تتم ضد مجموعات محدودة من الأهداف في البر والبحر، وفي بيئة عمليات تتميز بالهشاشة.

وفي دراسته: الحرب وتَبِعاتها، المنشورة في عدد تموز ٢٠٠٣ من دورية "بوليسي ريفيو"، قال فريدريك كيغان إن مفهوم "الحرب مركزية الشبكات NCW" صعب ومعقد، إذ يقوم على أن التفوق المعلوماتي يولد قوة قتالية متزايدة، باستعمال أجهزة استشعار الشبكة التي تربط بين صانعي القرار وحاملي الأسلحة أومستخدميها، مما يخلق إدراكا مشتركا للخطر، وسرعة كبيرة للقيادة في اتخاذ القرار، فضلا عن توفير درجة أعلى لنشاط العمليات، ودرجة تدمير أعظم، وفاعلية متزايدة للبقاء، ودرجة من الانسجام الذاتي مع الظروف المتغيرة. وهذا يعني أن كل الوحدات العاملة في القوات المسلحة يجب أن ترتبط معا إلكترونيا، بدءا من الأقمار الصناعية إلى الجنود. هذا كله ينبغي أن يرتبط بالقادة والأسلحة بصورة كاملة وبطريقة شبكية، من أجل تزويدهم بصورة عملياتية مشتركة، ورؤية موحدة تتعلق بما يجري في كل مكان من أرض المعركة، والمنطقة التي يتم تنفيذ العمليات فيها. أما من حيث مضمون هذا المفهوم، فهو يعني أن ستراتيجيا "الحرب مركزية الشبكات" تترجم إلى قوة قتالية عن طريق إحداث ربط فعال بين كل الوحدات الموجودة في ساحة المعركة.

وتسعى ستراتيجيا NCW إلى استخدام الاستخبارات المتكاملة التي يفترض أن توفرها الأقمار الصناعية والطائرات المقاتلة والطائرات المسيّرة وأجهزة الاستشعار الأخرى، مما يسمح للقادة بأن يتعرفوا على الأهداف الصحيحة وتدميرها بذخائر حربية موجهة بدقة. وتسمح هذه الستراتيجيا، المرحلة من مفهوم تجاري في الأصل عرفته بعض الشركات الأميركية التي تعتمد الشبكات المعلوماتية المعقدة، بوضع توقعات دقيقة تتسم بأقل قدر من المخاطرة، وبالتكيف السريع في مواجهة الظروف المتغيرة. والأساس في ستراتيجيا NCW هو تحقيق التفوق المعلوماتي على العدو، عبر معرفة كل شيء عنه وتركه جاهلا بأي شيء عن الطرف الذي يواجهه، مما يضمن سرعة إجهاض الخيارات المعادية، ويخلق خيارات جديدة، ويحسّن فعالية الخيارات المنتقاة، ممهدا لانتهاء العمليات بسرعة أكثر وبكلفة أقل. ذلك كله يسمح للخبراء الستراتيجيين والعسكريين بالحديث عن أن هذا المفهوم سيكون ثوريا وتحوليا، إذ سيؤدي خلق هذه الشبكة المتكاملة، والتطبيق الفعلي للكثير من المفاهيم الأخرى ذات الصلة بها، إلى تزويدنا للمرة الأولى بإمكانية الانتقال إلى ما وراء الستراتيجيا القائمة على "الاستنزاف"، إلى أخرى قائمة على "الصدمة والرعب"، ذلك الشعار الذي رُفع إبان الحرب على نظام صدام.

هكذا إذن تم كسب الحرب، فلماذا كانت خسارة السلام إذن؟

حكاية الشبح: الجهاد الإلكتروني وهجوم الشبكة المعاكس

في ١٩ أيلول ٢٠٠٤ ظهر بيان على شبكة الانترنيت يقول إن التقارير التي يبثها "المجاهدون" في العراق تعبر عن وجهة النظر التي تريد لها أميركا أن تضيع وسط التعتيم الإعلامي الذي تفرضه، في إطار سعيها لخداع مواطنيها وحلفائها. كان هذا البيان، وبيانات أخرى كثيرة، يعود لخبير معلوماتي يعمل مع تنظيم "التوحيد والجهاد" الذي يتزعمه الزرقاوي، والذي جعل من العراق مركزا لنشاطه المسلح. صحيفة "الشرق الأوسط" قالت في عددها الصادر يوم ٣ أيلول ٢٠٠٤، إن هذا الخبير الذي يدعى (أبو ميسرة العراقي) كالشبح، لأنه بارع في التخفّي وموجود في كل مكان تقريبا، مع أن أحدا لا يعرف أين يوجد بالضبط في عالمنا الافتراضي، وما إذا كانت بياناته وأشرطته الصوتية والصورية تَبُثّ من العراق أم من خارجه، وما ذلك إلا لأن (أبو ميسرة) يغيّر حساباته الخاصة بالانترنيت، مستفيدا من التكنولوجيا الجديدة لإيصال رسالته إلى العالم.

إيفان كولمان مستشار شؤون الإرهاب قال إن لا مجال لوقف نشر هذه التقارير والبيانات، وأن بوسع أي خبير إرسال تسجيلات فيديوية ذات نوعية متميزة إلى ملايين الناس من دون أن تتعرض إلى حذف أو تعديل. ومع اقتراب موعد انتخابات الرئاسة الأميركية وجدت إدارة بوش نفسها في حرب دعائية تحاول فيها أن تعكس صورة تؤكد إحراز تقدم في العراق، واستقرار الأوضاع الأمنية فيه. إلا أن بيانات (أبو ميسرة) أظهرت صورة معاكسة، من هنا سعت السلطات الأميركية إلى إسكاته بأية وسيلة.

هكذا إذن أصبحت تكنولوجيا الانترنيت التي ظهرت في ستينيات القرن الماضي، بوصفها شبكة اتصالات تساعد على درء أي هجوم سوفييتي نووي محتمل، وسيلة مهمة اليوم في يد العناصر الأصولية المتشددة. وفي أعقاب أحداث ١١ أيلول عثر ضباط الأجهزة الأمنية الفيدرالية على الكثير من الآثار التي أثبتت أن خاطفي الطائرات التي استُخدمت في الهجمات استعملوا البريد الإلكتروني في تنسيق تحركاتهم، وحجز تذاكر الطيران، كما استخدموا الشبكة في البحث عن موضوعات تهمهم، من نحو رش المبيدات في الجو.

وإذا كانت الحرب مركزية الشبكات قد حققت الصدمة والرعب عبر التفوق المعلوماتي، فإن التكنولوجيا سلاح ذو حدين، ولا سيما في مجال الحرب النفسية. هكذا نجد اختصاصي الإعلام في جامعة نيويورك بيتر برادازي يقول إن شبكة الانترنيت سمحت للإرهابيين بشن حرب نفسية غير مسبوقة، لأنهم يسيطرون مباشرة على عملية صياغة صورتهم وصورة عدوهم بالشكل الذي يرغبون، وذلك عبر مخابئ يصعب كشفها. ففي ظل وجود ما يزيد على مليار جهاز كومبيوتر متصلة ببعضها، يعد الانترنيت المكان الأنسب للتخفي، بالنسبة للتنظيمات السرية. فهذه التقنية تسمح للمستخدمين بإخفاء هوياتهم وتغييرها، وإلغاء حسابات البريد الإلكتروني وفتح أخرى بديلة. كما يمكن إخفاء موقع المستخدم من خلال التنقل من جهاز كومبيوتر إلى آخر يبعد عنه آلاف الكيلومترات. وما يساعد على السرية أيضا أن عناوين وحسابات البريد الالكتروني المجانية لا تطلب من المستخدم سوى معلومات محدودة، وهي معلومات نادرا ما يجري التثبت من صحتها.

وبالعودة إلى (أبو ميسرة) نجد أن المحققين في مجال الإرهاب بدؤوا بالتعرف على اسمه في شهر كانون الثاني ٢٠٠٤، وذلك في غرف الدردشة التابعة لمنتدى "الأنصار". ويعتقد هؤلاء المحققون أن موقع "الأنصار" هو الذي نقل في شهر أيار ٢٠٠٤، وللمرة الأولى، شريط الفيديو الذي صور قتل رجل الأعمال الأميركي نيكولاس بيرغ. وأضاف المحققون أن مقر الموقع كان في اليكساندريا، إلا أنه نقل إلى ماليزيا مع مقتل بيرغ. وحالما تمكنت السلطات الأميركية من إغلاقه بشكل مؤقت، عاد إلى الظهور ثانية في جهاز خادم في ويست لافايت بولاية انديانا.

الغرور الإمبراطوري: ستراتيجيات قاتلة

بتاريخ ٢٦ أيلول ٢٠٠٤ نقلت وكالة الصحافة الفرنسية تصريحا للقائد الميداني في محافظة وزيرستان الجنوبية الباكستانية الجنرال نياز خاتاك قال فيه إن مقاتلي القاعدة محنّكون ومدرّبون تدريبا عاليا، ويحملون معهم خرائط عسكرية متطورة، وبوصلات ومناظير، وأجهزة اتصال فعالة من نوع "ثريا"، و"جي بي أس"، تعمل على وفق نظام عالمي لتحديد المواقع. فضلا عن ذلك ذكرت صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" في ٢٦ أيلول ٢٠٠٤ أن بعض خبراء التنظيمات الإرهابية أجروا تحقيقا في ٤ قارات ليكتشفوا أن "القاعدة" كانت حتى ١١ أيلول منظمة رخوة الروابط ومرنة العلاقات، على الرغم من أن كبار قادتها ظلوا يمارسون نفوذا حاسما في تحديد عملياتها. وبعد أن فقدت قاعدتها في أفغانستان، نشرت المنظمة أذرعها وراياتها في كل العالم، وظهرت من جديد بوصفها أكثر التنظيمات الأيديولوجية فتكا ولا مركزية.

من هنا صار أسامة بن لادن مصدر إلهام للكثير من الناشطين، أكثر منه قائدا ميدانيا أو تنفيذيا، ولا سيما في العراق. وعوض التدريبات المطوّلة والمتخصصة التي كانت توفرها أفغانستان، أصبح المقاتلون يتلقون تدريبهم الأيديولوجي في منازلهم عبر شتى أشكال التكنولوجيا، ويزج بهم إلى ميادين القتال مباشرة. وتميل هذه التنظيمات، التي تلتقي مع القاعدة آيديولوجيا، إلى العزوف عن العمليات العسكرية الكبيرة التي يستغرق الإعداد لها سنوات عدة، مفضلة اللجوء إلى تكتيكات جديدة تقوم على العمليات الصغيرة المتزامنة وذات الكلفة المحدودة. من هنا انتقلت "القاعدة" بسرعة من محض منظمة إلى آيديولوجيا، وهي تميل اليوم، منذ تفجيرات ١١ أيلول، إلى العمل اللامركزي الذي يتفق في الستراتيجيات فحسب، وذلك خلافا لما كان قبل ١١ أيلول، حين حرص قادة التنظيم على السيطرة الكاملة على كل العمليات والناشطين، والإشراف على العمل خطوة خطوة.

وقبيل استقالته أشار كبير ضباط مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية مايكل شوير، في كتابه: الغرور الإمبراطوري، إلى أن أهم الستراتيجيات القاتلة التي اتبعتها الوكالة هي الانشغال بمطاردة أذيال "القاعدة"، عبر اعتقال المشتبه بهم، ومتابعة الخيوط التي تؤدي إليهم، وذلك على حساب مواجهة الانتشار السريع لخلايا التنظيم في شتى أرجاء العالم. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن القاعدة توزعت إلى وحدات مستقلة، وأن الخبراء لا يعرفون حجم التحكم المركزي الذي يمارس على تلك الوحدات، يصبح البحث عن قادة التنظيم عملا غبيا لا طائل من ورائه، لأن هذا التنظيم صار مثل التنين، كلما قطع له رأس نبت آخر.

من الواضح إذن إن الخلل لم يكن في تطبيق ستراتيجيا NCW، بل كان الخطأ كامنا في الاعتقاد بأن ما يصلح لساحة المعركة، يصلح لما بعدها. لقد ثبت بالدليل القاطع أن التكنولوجيا التي عوّلت عليها أميركا في حربها على الإرهاب سلاح ذو حدين، وأن الحرب المركزية يمكن أن تحسم أهداف المعركة، لكنها لا تستطيع أبدا أن تقف بوجه لا مركزية التنظيمات الإرهابية. وقد أثبتت تفجيرات لندن الأخيرة صحة هذا الرأي، الأمر الذي يدفع العالم اليوم إلى مقاربة حلول مختلفة للسيطرة على هذه الظاهرة، بما في ذلك الاعتراف بالأخطاء المتعلقة بالسياسات القائمة على الغرور الإمبراطوري الذي كان من أهم سماته مساندة الأنظمة الدكتاتورية وسيادة الظلم والكيل بمكيالين، ولا سيما في الشرق الأوسط.